اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١) | الآيات [١ : ٣]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

بإذن الله -عز وجل- نستكمل مجالس تدارس القرآن، أسأل الله -عز وجل- ألا يحرمنا من هذه الجنة، هي جنة الدنيا حقيقةً، خير الكلام كلام الله -سبحانه وتعالى- وأفضل الأوقات هي التي يقضيها الإنسان في مدارسة كلام الملك -سبحانه وتعالى-.

نستكمل بإذن الله -عز وجل- سلسلة لا أريد أن أقول تفسيرًا، إنما هي وقفات مع آيات كتاب الله -عز وجل-.

أكرمنا الله -عز وجل- بوقفات مع بعض سور القرآن سورة سبأ، وفاطر، ويس، وبعض -أو أغلب- جزء عم، مع سورة الحديد من المدني، وسورة الفتح من القرآن المدني، مع سورة طويلة من القرآن المكي سورة الأنعام.

وكان الإنسان مترددًا هل ينتقل إلى سورة طويلة من القرآن المدني، أم يستكمل سورة طويلة من القرآن المكي؟ حيث أن العُمر قد يكون قصيرًا، ولا يعلم الإنسان متى تأتيه المنيَّة، فالمرء يُفضل أن يختار سورة طويلة من القرآن المكي، بحيث يمر على مُجمل مقاصد القرآن المكي، ثم ينتقل إلى القرآن المدني، أيضًا ينتقي سورًا، ثم سورًا طويلة، بحيث إن لم يُسعفنا الأجل للمرور على كل القرآن الكريم نكون تحدثنا عن أغلب المواضع، وتحدثنا عن المقاصد التي أفهمها أو فُتح عليَّ بها؛ لأن الإحاطة بكلام الله -عزّ وجل- أمر مستحيل.

لذلك كان الشيخ رشيد رضا -سبحان الله- وأنا أقرأ في تفسيره في سورة الأعراف، قرأت آخر شيء كتبه في نهاية سورة الأنعام، وجدته يقول أنه يشتكي من التعب ويتمنى أن يُكمل -بعد سورة الأنعام- سورة الأعراف، ويريد أن يُكمل تفسير القرآن، فيشتكي ويقول -بعد مقدمة- "والفكر في بلبال، والقلب في آلام، والزمن غير مساعد على محاولة الاستقصاء، وأيضًا محاولة الإحاطة بعلوم القرآن ليست في استطاعة إنسان، وهي تتجدد في كل زمان".

يشتكي من أنَّ القلب مشغول، وأنَّ الإنسان في مشاغل الحياة، وأنه مهما حاول الإنسان أن يستقصي معاني القرآن، فهذا أمر مستحيل، فأسأل الله -عز وجل- أن يستعملنا، وأن يرزقنا فهم كتابه، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

المنهجية التي سنسير عليها

سنبدأ بإذن الله –عز وجل– مع سورة الأعراف، وهي نوع من الاستكمال لسورة الأنعام، قبل أن نبدأ في تفاصيل سورة الأعراف، أول نقطة أريد التحدث فيها أننا سنحاول –إن شاء الله– سويًا في سورة الأعراف أن نعلو قليلًا بالمستوى –بالطبع في حدود طاقتنا– مهما علا المرء فهو له طاقة معينة.

ماذا أقصد؟

أقصد أنَّ هناك قضايا بلاغية، وإشارات معينة في القرآن، كنا قبلًا نمر عليها مرور الكرام، ونتخطاها، أو نخشى مثلًا أن ننقل أقوالًا في التفاسير، نخشى أن تُشتت السامع.

لذلك أنا أنصح بتأجيل سماع سورة الأعراف –إن مَنَّ الله –عزّ وجل– علينا، ورزقنا إتمام هذه السورة–، والاستماع لتفسير جزء عم أولًا، أو الاستماع لسورة الأنعام، ثم سورة الفتح، ثم سورة الأعراف؛ لأننا سنحاول –كما فعلنا في سورة الفتح– شرح بعض القضايا البلاغية، سنتعب معها قليلًا، لكن ستفيدنا في فهم القرآن كاملًا بإذن الله –عز وجل– هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية أننا سنتحدث في سورة الأعراف كمجمل، حقيقةً الكلام عن موضوع، أو فكرة أو مجمل سورة، أمر صعب، ويزداد الأمر صعوبة عندما تكون السورة طويلة، سورة الأعراف (٢٠٦ آية) أطول سورة مكية في القرآن، يُسميها السلف "طولى الطولَيَيْن".

الطوليين: يعني أطول سورتين في القرآن المكي، الأنعام والأعراف؛ فطولى الطوليين أي أن أطول سورة في مكة كانت الأعراف.

بالطبع نحن سنتحدث عن موضوع يجمع هذه الآيات الكثيرة، وهو أمر في غاية الصعوبة؛ لذلك لا أحب أن أتعجل فيها، لكنها إشارات سريعة، هناك خصائص معينة في سورة الأعراف سنتحدث عنها، ونحاول التقاط خصائص تميزت بها سورة الأعراف نتحدث عنها.

متى تظهر الفكرة؟

مَن يُريد أن يُوفق لفهم موضوع، أو فكرة، -ولا يكون هو الموضوع الأوحد- لكنه الموضوع الذي يُوفق لفهمه، وقد يفتح الله -عز وجل- على من يشاء من عباده-، متى تظهر مع السورة؟

عندما تقوم معها بأمرين:

١- أن تذاكرها مذاكرة تفصيلية آية آية، تعيش معها آية آية، -ويُفضل أن تكون هذه البداية

٢- ثم تقرأ السورة مجملة على بعضها، كما رُوي عن سورة الأنعام أنها نزلت جملة واحدة، كذلك أنت تقوم فتصلي بهذه السورة كاملة مرة واحدة، كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- في سورة الأعراف في صلاة المغرب، وهذه **كانت من عادة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا افتتح سورة كان لا يخرج من الفريضة إلا إذا أتمها.**

كما ذكر ابن القيم، هذه كانت من عادة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا يجتزئ بعض الآيات في الفروض، في النوافل كان يفعل ذلك، أما في الفروض فكان يقرأ بالسورة كاملة كما فعل في سورة الطور أو سورة النجم أو سورة الأعراف، كان إذا افتتح سورة أتمها؛ لذلك كان هذا أيضًا دأب بعض الصحابة عندما كان يفتتح سورة مثل معاذ بن جبل، عندما كان يفتتح سورة البقرة كان يتمها.

فنحن سنحاول أن نتحدث عن بعض خصائص سورة الأعراف:

موضع سورة الأعراف في القرآن

أولًا:

موضع سورة الأعراف في القرآن بعد سورة الأنعام، -وما أقوله هو اجتهاد شخصي قد يُقبل وقد يُردّ-، هناك فكرة قد طرحتها في مقدمة سورة الفتح مرتبطة بترتيب سور القرآن في المصحف.

عندما تنظر في ترتيب سور المصحف، تجد أنَّ السور بدأت بسور مدنية سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم النساء، المائدة، كل هذه سور مدنية، بعد ذلك الأنعام والأعراف سور مكية، بعد ذلك سورة الأنفال مدنية، نقف قبل الأنفال.

إذًا نحن لدينا مجموعة من السور المدنية الطويلة ثم سورتين أيضًا من السور الطوال المكية ثم سور مدنية، **وكأنَّ الله –عز وجل– –وهو أعلى وأعلم– يخبرنا أن هناك دورات معينة من التمكين والاستضعاف تمر الأمة بها.**أي مثلًا السور المدنية تُمثل التمكين للأمة الإسلامية؛ لأن في المدينة كان هناك تمكين، هناك إقامة للشرع، إقامة للحدود، ذلك كان مُمَكَّنا لنا في المدينة، ثم مرحلة الاستضعاف في مكة، ثم مرحلة الأنفال والتوبة –هذه سور مدنية–، بعد سورة التوبة تأتي سورة يونس، يأتي شوط مكي طويل يبدأ بيونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء، من أطول الأشواط المكية في القرآن، ثم تأتي سورة مدنية كسورة الحج، ثم مكية، ثم مدنية وهكذا، يحدث تتابع.

حين ننظر في سور القرآن، نجد:

- سورة البقرة –كما قلت في إشارة سريعة– نجد بداية إقامة المجتمع المدني، ما زالت مجموعات من المؤمنين ذاهبين إلى المدينة، لم تتكون دولة متكاملة بعد.
- بعد ذلك سورة آل عمران، هناك نوع من التمكين أكثر وبدأ قتال المشركين.
- سورة النساء تمكين أكثر ووضع القوانين، والحدود، والقواعد، والحقوق، وإعطاء كل ذي حق حقه.
- سورة المائدة العلاقات الخارجية مع بقية المجتمعات.
- ثم نرجع ثانيةً إلى نقطة الصفر في سورة الأنعام، وكأننا نبدأ من الصفر مرة أخرى، الاستضعاف في الأنعام.
- نعلو قليلًا في الأعراف.
- نعلو أكثر غزوة بدر، أول غزوة في المدينة –سورة الأنفال–.
- نعلو أكثر آخر غزوة في المدينة –سورة التوبة–، أعلى نقطة تمكين غزوة تبوك في سورة التوبة.
- نرجع بعدها في سورة يونس، كأننا نبدأ من الصفر ثانيةً.

فكأن الله –عز وجل– وهو أعلم، القرآن به دورات، أي مدني ومكي، استضعاف وتمكين، وكأن الله يُعلمنا أنَّ هذه هي الحياة؛ لذلك آخر القرآن –أظن قلت ذلك في سورة الفتح– آخر سورتين

عندما نستبعد المعوذات -لأنهن ختام للمصحف كله- الإخلاص، والفلق، والناس، وهم لهم ختام خاص، وغرض مخصوص، نجد آخر سورتين مثَّلتا هذه القضية: النصر، والمسد.

- النصر أعلى قمة التمكين، أن الناس يأتون أفواجًا، لم يعودوا يأتون فرادى { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ } [الفتح:١-٢] أصبح الناس جميعهم يدخلون أفواجًا، لا أفرادًا، إذًا أعلى نقطة تمكين سورة النصر.
- وبعد ذلك سورة المسد، أكثر نقطة استضعاف، ما زلنا في لحظات البداية، وأقرب الناس للنبي -صلى الله عليه وسلم- يصرف الناس عنه، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يسير يدعو الناس إلى التوحيد، ويسير خلفه عمه أبو لهب يصرف الناس عنه.

آخر سورة شخص من أقرب الناس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يحاول صرف الناس عنه، والسورة التي قبلها الناس تأتي للنبي -صلى الله عليه وسلم- أفواجًا وجماعات، ويُختم بالاستضعاف، **القرآن يُختم بالاستضعاف؛ حتى لا نغتر، ويبدأ بالتمكين في سورة البقرة؛ حتى نتفاءل ويكون لدينا الأمل.**

تركيز سورة الأنعام على الربوبية

نعود إلى سورة الأعراف، عندما ننظر إلى سلسلة سورة الأعراف لو افترضنا أن الأنعام هي بداية في مكة، فالأعراف نقطة بعد الأنعام، كيف تكون الأعراف مرحلة بعد الأنعام؟

أونتحدث في فكرة مكمِّلة لسورة الأنعام؟ عندما ننظر في سورة الأنعام -كل هذا نتحدث عمَّا تميزت به سورة الأعراف، سواء في مَوضِعها، أو موضوعاتها، أو بدايتها، سنتحدث عن الحروف المقطعة {المص}-.

- سورة الأنعام بدأت { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [الأنعام:١] الآيات الكونية المبثوثة،
- { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } الظلمات والنور، الحسية التي تراها، والمعنوية التي هي الحق والباطل،

- وبالرغم من وضوح الآيات الكونية –السماوات والأرض–، وبالرغم من وضوح الحق والباطل والظلمات والنور، إلا أنَّ هناك أناسًا { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } ثم=أي بالرغم من ذلك، يسمونها للتراخي الرُتبي، شيء لم يكن يُتوقع أبدًا –وهذه شرحتها في أول سورة الأنعام– لم يكن متوقعًا أن يكون رد الفعل بعد خلق السماوات والأرض، وتوضيح الظلمات والنور، أنْ يكفر أناسٌ بالله –سبحانه وتعالى–.

فكان من مواضيع سورة الأنعام أنها تركز أكثر على الربوبية، –أنا سآتي بأمور معينة من سورة الأنعام، و ما يقابلها من سورة الأعراف–، الأنعام كانت تُركز أكثر على معنى الربوبية، على معنى الخلق، على معنى ربوبية الله، الله فالق الحب والنوى، –أو الرب؛ لكي نكون أكثر دقة–، الرب فالق الحب والنوى، الرب الذي عنده مفاتِح الغيب، الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا }[الأنعام:٥٩].

لذلك سيدنا إبراهيم كان يقول { هَٰذَا رَبِّي } [الأنعام:٧٧] عندما رأى القمر بازغًا، النجم، والقمر، والشمس قال { هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ }[الأنعام:٧٨] كانت قضية ربوبية.

آخر سورة الأنعام قال { أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا }[الأنعام:١٦٤] ، إنما في سورة الأعراف سيدنا موسى يقول {أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا}[الأعراف:١٤٠]، انظر للفرق بين الرب والإله.

سورة الأنعام تُركز على معنى الربوبية، معنى الربوبية أي الذي بث الآيات الكونية، مبثوثة في الكون، التي تدل عليه –سبحانه وتعالى–؛ فهي تُقر في الإنسان وجود ربه، لهذا الكون إلهًا أو لهذا الكون ربًا، الرب المنعم المالك المدبر.

لذلك سورة الأنعام مليئة بآيات ربنا –سبحانه وتعالى– النعم والآيات الكونية، ومليئة بنعم ربنا، أنه يُنجيكم من كل كرب، أنه أنعم عليكم وأعطاكم كذا، وأعطاكم الأنعام.

فكان التصرف الخاطئ للبشر في سورة الأنعام التعامل الخاطيء مع النعم، ربنا أعطاهم نعمًا كثيرة، ينجيهم من كل كرب ثم يُشركون، يعطيهم الأنعام –كنوع من النعم– ثم يجعلونها لغير الله، فكان هناك تعامل خاطئ مع النعم.

ثانيًا:

سورة الأعراف لا تركز بصورة كبيرة على النعم، ليس على المخلوقات، **أكثر كلمة جاءت في سورة الأعراف كلمة الآيات**، أنَّ الله -عز وجل- بعدما أثبتنا أن للكون ربًا في سورة الأنعام، والربوبية تعني أنا اخترت ربنا فقط، في سورة الأنعام { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[الأنعام:٧٩] { إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:١٦٢] **أنا اخترت وجهة، هناك رب، ماذا يريد الرب من العباد؟>>> هذه هي الرسالة الموجودة في سورة الأعراف.**

إن سورة الأنعام تقول لك لهذا الكون ربًا، سورة الأعراف تقول لك أنَّ هذا الرب لم يترك الناس سُدًى، ولكن أرسل إليهم آيات، أرسل إليهم رسالة، أرسل إليهم رُسلًا.

ماذا فعل الناس مع الآيات؟ ماذا فعل الناس مع الرُسل؟ هذا هو موضوع سورة الأعراف.

لذلك {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا}[الأعراف:١٠٣] {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف:١٣٦و١٤٦] كلمة "الآيات" جاءت أكثر من مرة في سورة الأعراف، **أكثر سورة ذكرت كلمة "الآيات" في القرآن كانت في سورة الأعراف، بتصريفاتها**، كثيرة جدًا في هذه السورة، وهذا بالطبع كيف تلاحظه؟ بقراءتك للسورة جُملة واحدة، تقرأ السورة جُملة واحدة، تُصلي مثلًا بالسورة كاملة، تلحظ الآيات.

اقرأ سورة الأعراف وأنت تبحث عن الرسالة، الرسالات، الآيات، انظر لكمية ذكر هذه الكلمة.

لذلك في بداية هذه السورة {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}[الأعراف:٦] لماذا لا تكون "فلنسألن الأقوام، ونسألن الأنبياء" ؟ لماذا محور الرسالة؟ إنا بما أرسلتم به، { إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ} لماذا "رسالات ربهم" تكررت في السورة؟

لأن هذا هو محور سورة الأعراف، كيف تعامل الناس مع الآيات.

- سورة الأنعام تتحدث عن التعامل الخاطئ مع النعم؛ لأن ربنا –سبحانه وتعالى– جعل نعمًا في الكون؛ حتى نعلم أنَّ لهذا الكون ربًا.
- سورة الأعراف تتحدث عن أنَّ الرب لم يترك الناس سُدًى.

الربوبية والألوهية

ما الفرق بين الرب والإله؟

- الرب: هو الذي خلق، الذي أعطى، ويُربي العباد بالنعم.
- الإله: أي المعبود.

- فالرب: **ماذا ينزل من الرب للعباد؟ هذه الربوبية.**
- الألوهية: **ماذا سوف يُقدّم من حق الله –عز وجل– على العباد؟ هذه الألوهية.** ماذا سيفعل الناس لربنا؟ العبادة.

فأنت لكي تتأله، تعبد، لا بد أن يكون هناك رسالة؛ لذلك لابد من التفرقة ، وانظر للمشركين، فهم يعلمون الفرق بين الرب والإله.

- في سورة الشعراء عندما قال فرعون لموسى {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء:٢٣] وما ماذا؟ رب العالمين،
- {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ}[الشعراء:٢٤]
- فعندما ضاق بفرعون السبيل، حاول إدخال الناس الموجودين، فقال {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ}؟[الشعراء:٢٥]
- سيدنا موسى قال لهم {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}،
- فرد فرعون {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}.
- بدأ يهرب، واتهمه بالجنون، {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }، هل أنا المجنون؟ بل أنتم المجانين...

- عندما انهزم فرعون قال: انظر ليس المهم من الذي خلق، المهم أن تنصاع لكلامي {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا } لم يقل ربًا؛ لأنه فشل في قضية الربوبية، { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي} تستمع لكلامي أنا، اعتقد في الربوبية كما تشاء، الله الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر، أنا لن أستطيع أن آتي بالشمس من المغرب، –مثل المناظرة التي هُزم فيها النمرود–، دائمًا مناظرة الربوبية يُهزم فيها كثير من الناس.

لذلك المراحل التي يمر بها الإنسان من الضلال إلى الهدى خمس:

١- أول مرحلة: ربما يكون "مُلحدًا"، أي يُنكر أصلًا وجود الله، فتأتي له بعد ذلك الشبهات ضد الإلحاد، فيقول أنا لا أقدر أن أثبت، ولا أقدر أن أنفي.
٢- فيصبح "لا أدريًا" يسمونه لا أدريًا اللاأدريين.
٣- بعد ذلك كثرة الآيات والنعم الموجودة تجعله "ربوبيًا"، بمعنى أنه يثبت أن للكون ربًا.
٤- بعد ذلك ربما يختار دينًا من الأديان الباطلة، نصرانيًا، أو يهوديًا، أو الأرضية: الهندوسي، البوذي.
٥- بعد ذلك يصل إلى الحق "الإسلام".

فهو يمر بهذه المراحل، فمن نعم الله– عز وجل– علينا أن جعلنا مسلمين، لا تحتاج أن تمر بهذه المراحل، ممكن الإنسان ينتقل مباشرةً، سورة الأنعام –طبعًا السورة الواحدة تحوي كل شيء أنا أقول فقط على أي شيء تركز– سورة الأنعام تضغط بقوة على قضية الربوبية.

سورة الأعراف بعد ما علمت أن لهذا الكون ربًا؛ لذلك أول شيء بدأت به سورة الأعراف {المص كتاب}، الرب الذي تعرفت عليه في الأنعام أنزل كتابًا، لم يترككم سدى، أرسل رسالة، سورة الأنعام بدأت بالخلق، الربوبية {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ}.

ودائمًا تعريف الرب يبدأ من الربوبية، أول تعريف لله في القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[العلق:١] إذًا دائمًا الربوبية مرتبطة بالخلق، إذًا الأنعام ربوبية، نِعم، تعامل خاطئ مع النعم، أن يجعلوا ذلك للمشركين، ويقسموه للآلهة.

الأعراف رسالة، كتاب.

بدأت الأنعام {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ} خُتمت {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا }[الأنعام:١٦٤]، الأعراف بدأت {كتاب} وخُتمت بالاستماع للكتاب، {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} دعك منهم {فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا }.

بدأت سورة الأعراف أنه ربما يكون في صدرك حرج {فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ}، في نهاية السورة أنت نسيتهم بالفعل وتركز الآن مع القرآن {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

ولازال إلى نهاية سورة الأعراف يريدون آيات {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ}، ومازالوا يطلبون آية، بعد كل هذه الآيات الموجودة في سورة الأعراف!!! .

و بالاستمرار في القراءة سوف نجد أشياء تختص بسورة الأعراف، لذلك {أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} وليس وربوبيتك { أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا}، قضية الرسالة، و{كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} و"ظلموا بآياتنا"، {وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}.

من مواضيع سورة الأعراف: الغفلة عن الآيات

ثالثًا:

أيضًا من المعاني المتكررة في آخر السورة: الغفلة عن الآيات، ولو قُدِر لنا، وأتمَّ الله علينا نعمة تدارس سورة الأعراف، سنرى أن الغفلة عن الآيات نوعان في نهاية السورة، جاءت مرتين الغفلة عن الآيات في سورة الأعراف.

ما بعد فرعون

رابعًا:

حسنًا وماذا أيضًا متميز في سورة الأعراف ؟ سورة الأعراف مكية أم مدنية؟ مكية، المتتبع للقرآن يجد بالطبع أن من أكثر قصص القرآن قصة سيدنا موسى مع بني اسرائيل.

حين نتتبع قصة سيدنا موسى في القرآن، نجد أن القرآن المكي كان غالبًا لا يذكر مرحلة ما بعد إهلاك فرعون، دائمًا القرآن المكي يتوقف عند إغراق فرعون.

ماذا بعد إغراق فرعون ماذا حدث؟ والتمكين الذي حدث لبني إسرائيل، كيف تعاملوا مع الكتاب؟ كيف تعاملوا مع التوراة؟ المراوغة، التأويل التحريف، التبديل، الانتقاء، كل هذا لم يذكر في القرآن المكي، أين ذكر؟

في القرآن المدني، لماذا؟ **لأن القرآن كان ينزل علينا في مكة و نحن ليس لدينا تشريع، فكان يأتي لنا بنموذج بني إسرائيل عندما صبروا على البلاء، عندما ذهبنا إلى المدينة، جاء بنموذج بني إسرائيل حينما فُتنوا بعد التمكين، ولذلك ربنا أتى لنا بنموذج بني إسرائيل؛ لكي نتأسى به في مكة، ولنحذر منه في المدينة.**

أكرر: القرآن أتى بنموذج بني إسرائيل؛ لكي نتأسى به في مكة، ولنحذر منه في المدينة؛ لأن في المدينة أصبح لدينا كتاب القرآن، هم كان لديهم التوراة بعد التمكين بعد إغراق فرعون؛ فحرفوا، وبدلوا، وأولوا، وانتقوا.

هذه القاعدة موجودة في كل القرآن المكي إلا في موضعين، في سورة الأعراف، وسورة طه.

سورة طه لم تُكمل كل الأحداث التفصيلية التي حدثت بعد إغراق فرعون، جاءت بمشهد؟ أي مشهد؟ السامري، وهذا شيء خاص بسورة طه؛ لأن سورة طه { مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ } [طه:٢] فتذكر أسباب شقاء الداعية، أنه ربما يخطئ أخطاء، تؤدي إلى شقائه منها وجود السامري في الصف وهو لا يشعر؛ لذلك ذكر لغرض مُعين في سورة طه.

سورة الأعراف هذه التكملة كانت لها غرض أيضًا، **سورة الأعراف بالفعل من مواضيعها الأساسية "التعامل الخاطئ مع رسالات الله"**، مع آيات الله، فجاءت بجزء متتالي، مجموعة من الأنبياء متتالية بالترتيب، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب.

وجميع هؤلاء الأنبياء لم يذكر القرآن أنه حدث لهم تمكين، أي أن الأقوام بعدها أهلكوا، القرآن لم يذكر ما الذي حدث بعد ذلك، ثم جاء بنموذج أن حتى المؤمنين –ليس فقط الكافرين– من الممكن أن

يتعاملوا بشكل خاطىء مع رسالات الله، **حتى المؤمنين ممكن أن يتعاملوا بشكل خاطىء مع رسالات الله.**

إذًا الخطأ في التعامل مع الرسالات نوعين:

- أهل الكفر الذين يكفرون بالرسالة أصلًا، يقولون الله لم ينزل شيئًا، لا يوجد رسالة من الأساس، لا يوجد كتاب، هؤلاء الكفار والمشركين.
- هناك أهل الإيمان، -أو الذين ادعوا الإيمان، أو الذين اختاروا الإسلام-، ثم هم بعد ذلك يحرفون، يؤولون، يبدلون، يغيرون، هذا هو التعامل الخاطئ من المؤمنين أو من أتباع الرسالة مع هذه الرسالة.

لذلك حدث فصل، ستجد فصل صفحة ونصف بين قصص الأنبياء وقصة سيدنا موسى بمفرده، { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ} بعد آية تُعتبر شبه من الآيات المحورية في السورة { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ}.

المفسرين اختلفوا، أحيانًا يتكلمون ما هي الآية المحورية في السورة؟، بعضهم قال آية { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ}، **لذلك بعض المفسرين سمى سورة الأعراف سورة الميثاق**؛ للميثاق الذي أخذ في نهاية السورة.

- سواء الميثاق حقيقةً -وسنتحدث عن الخلاف فيها إن شاء الله-، كما اختار الإمام الطبري أن الله -عز وجل- خلق جميع البشر في عالم الذر من ظهر أبينا آدم، في عرفة، وأخذ عليهم الميثاق حقيقةً.
- أو أن هذه الآية المقصود بها ميثاق الفطرة الذي يوجد في الناس.

بعضهم أسماها سورة الميثاق، **وبعضهم أسماها سورة الميقات** { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا} إنما الاسم الذي ورد في السنة هو سورة الأعراف.

إذاً مما اختصت به سورة الأعراف أيضًا، أنها أكملت ما بعد إهلاك فرعون، { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا}، وبعدها جاء { وَجَاوَزْنَا} بدأ هنا هذه التكملة التي جاءت في السور المدنية مثل سورة البقرة، إنما جاءت بالتفصيل في سورة الأعراف.

سورة الأعراف يوجد بها نوع من التفصيل؛ لذلك الإمام ابن عباس اختار أن معنى {المص} أنا الله أعلم وأفصلُ، الصاد فيها نوع من التفصيل -وسنتحدث في مسألة الحروف المقطعة-.

إذًا هذه نظرة عامة مع سورة الأعراف، والفروقات بينها وبين سورة الأنعام، والفروقات كثيرة، سيتضح ذلك لمن يعيش مع سورة الأنعام، ويقرأها ويعيشها آية آية، ويقرأها جُملة، ثم يعيش مع سورة الأعراف آية آية، ثم يقرأها جُملة، وعجائب القرآن لا تنقضي.

الحروف المقطعة: المص

خامسًا:

أيضًا ما تميزت به سورة الأعراف -وهنا بداية التفسير أو بداية كلام الوقفات مع الآيات-، {المص}، نحن لدينا {الم} في القرآن منه ما نزل في مكة، ومنه ما نزل في المدينة، ويسموها تساهُلًا "اللواميم".

اللواميم المكية في القرآن متتالية العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، أو اللواميم المدنية {الم} التي نزلت في المدينة، متتالية أيضا البقرة وآل عمران.

صاد حرف في مقدمات السور، أين جاء؟ سورة ص، ومريم، صاد غالبًا تأتي في السور المكية، هنا جاء {المص}، سنتكلم ما الذي قيل في معاني الحروف المقطعة -أنا ناقل لكم-.

تميزت سورة الأعراف بالجمع {المص}، بعضهم قال: هي تجمع معاني كثيرة مبثوثة في سور أخرى، فسورة الأعراف هذا الطول فيه تفصيل، كما قلنا ورد عن ابن عباس "أنا الله أعلم وأفصل"؛ لإن الصاد فيها تفصيل.

نبدأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المص ﴿١﴾

الحروف المقطعة عامة، نحن لم يتيسر لنا أن نتكلم في سورة فيها الحروف المقطعة، الأنعام، سبأ، فاطر، يس، أغلب السور التي تم شرحها لم يكن فيها الحروف المقطعة، حتى السور التي كان فيها الحروف المقطعة تناولتها سريعًا في خطبة الجمعة مثل سورة الشورى، فلم يكن هناك فرصة أن نتحدث عن أقوال أهل العلم في الحروف المقطعة.

أقوال أهل العلم في الحروف المقطعة في أوائل السور بينهم اختلاف كثير، منهم من أوصلها إلى عشرين قولًا أو أكثر، نحن نحاول أن نقسمهم إلى مجموعات، نعلم ما سبب الاختلاف أولًا، ثم نقسم هذا الاختلاف إلى مجموعات.

ما سبب الاختلاف في الحروف المقطعة؟

بعضهم أشار إلى أن من أسباب الاختلاف في الحروف المقطعة، في قوله -سبحانه وتعالى- في سورة آل عمران { هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}[آل عمران:٧].

١- { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } الذي سيختار الوقف هنا ويقول { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}، يطلقون على هذه **الواو "واو استئناف"**، بداية جديدة، { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } وهذه الواو استئناف، { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }، فمن قال إن هذه الواو استئناف **قال إن هناك آيات في القرآن لا يعلم تأويلها إلا الله، منها الحروف المقطعة، فلا نتدخل في تأويلها.**

٢- والذي اختار هذه الواو وسماها **واو العطف** {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، أي **هناك آيات اختص الله بعلمها و الراسخون في العلم**، هذا أحد أسباب الاختلاف.

٣- بعضهم قال لا، من الممكن أن نقول أن هذه الواو استئناف، أي يوجد آيات في القران لا يعلم تأويلها إلا الله، لكن تأويلها هنا ليس بمعنى تفسيرها، وإنما تأويلها أن الله يحدثنا عن

أشياء سوف تحدث يوم القيامة سوف تحدث في الغيب لن نستطيع تصورها التصور المطلق إلا يوم القيامة، **إذاً المقصود بآية { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } الغيب الموجود في القرآن، وقضايا لا يستوعبها العقل مثل القدر، فهو يسلم به لله –سبحانه وتعالى–.**

٤- منهم من قال أن **النصوص العامة في القرآن الآمرة –سواءً استحبابًا أو وجوبًا– الآمرة بالتدبر لم تستثني شيئًا ليتدبروا فيه، كل القرآن مفتوح للتدبر؛ ومنه الحروف المقطعة**، هذا جعل بعض الناس يقول:إن لنا الحق في التدبر في الحروف المقطعة.

٥- بعضهم قال لا- الذين قالوا لا نتدبر في الحروف المقطعة- أن هناك استثناءات، -وإن كان هناك كلام في سنده- أن القرآن أربع أوجه، منه وجه لا يعلم تأويله إلا الله، ردوا عليهم بأثر آخر لابن عباس، أن ابن عباس نفسه ورد عنه آثار أنه فسر الحروف المقطعة، فهذا حجه لنا أن نفسر الحروف المقطعة.

الأقوال في الحروف المقطعة

الناشئ من هذا الخلاف ثلاثة أقوال، أو ثلاث أوجه تحت كل وجه أقوال كثيرة:

١- منهم من قال الحروف المقطعة لها معنى لا نعلمه، ولها حكمة لا نعلمها، لا نتحدث عنها على الإطلاق، أغلقوا الباب.

٢- ومنهم من قال ليس لها معنى ولكن لها حكمة، أي ليس المقصود أن الألف لها معنى واللام لها معنى والصاد هنا لها معنى، لا، هذه الحروف العادية، الحروف العربية ليس لها معنى، هي الحروف العادية، لكن لها حكمة، واختلفوا في ماهية هذه الحكمة.

٣- وقسم ثالث قال لها حكمة ومعنى، لها معاني، هذه الحروف إشارة إلى معاني معينة.

القسم الأول واضح بالفعل، {المص ﴿١﴾ كِتَابٌ}، لا يتعرض لها بشيء يقول هذه من الحروف المقطعة التي استأثر الله بعلمها.

لكن القسم الثاني قالوا هذه حروف عربية لا تحتاج إلى تدبر في معانيها، ولكن نتدبر في حكمتها، قالوا ومن حكمتها **"هذه الحروف التي يتكون منها القرآن، فما بالكم لا تستطيعون أن تأتوا بمثله"**، فقالوا **الغرض منها التحدي.**

ولذلك بعضهم حاول أن يجمع أن كل السور التي يوجد بها حروف مقطعه غالبًا يأتي بعدها ذكر القرآن، ثم فوجئوا أن بعض سور القرآن يأتي فيها حروف مقطعة ولا يأتي بعدها ذكر القرآن، مثل سورة مريم وسورة العنكبوت مثلاً، وسورة الروم، وأولوا هذه السور تحديدًا وأخرجوا منها أشياء موجودة للتحدي.

- المهم أن هناك أناسًا قالوا أن الحكمة من هذه الحروف المقطعة هي التحدي.
- وبعضهم قال أن هذا نوع من تربية الناس –هذه الحكمة، وليست المعنى–، أن الطفل أول ما يبدأ التعلم، يتعلم ألف، تقول له قل ألف فيقول ألف،لام، **نوع من أن هذا القرآن نزل لتتعلموه.**

الشاهد أنهم ظلوا يفكرون فذكروا أربعة أو خمسة حكم، بعض المفسرين حاول أن يستخرج ما الحكم لا المعاني، هل واضح الفرق؟

القسم الثالث قال كل حرف له معنى، له إشارة، وأن هذه الحروف إما اختصارًا لكلمات، وأتوا ببيت شعر مشهور "قلت لها قفي فقالت قاف" أي وقفت، أي أن العرب قد تستعمل الحرف ليدل على معنى معين، كلمة معينة، لا ليدل على حكمة، بل ليدل على معنى، أن هذا الحرف وراءه معانٍ.

هؤلاء العلماء انقسموا فريقين

- الذين قالوا إن الحروف المقطعة لها معنى ولها حكمة– قالوا نحن نتتبع الوارد لنا عن الصحابة، ولا نبحث، **ابن عباس قال {الم} أنا الله أعلم، {الر} أنا الله أرى**، إذًا نحن نقول هذا معناها ونبحث عن الآثار الواردة عن السلف.
- وبعضهم قال لا، ابن عباس هنا فتح باب الاجتهاد بالفعل، الذي أنكر هذا قال أن هذا السند ضعيف، لماذا أذكر لك هذا؟ حتى تعلم أن الأمر فيه سِعة، أن الأمر يوجد به سِعة.

بعض الأسانيد الواردة عن ابن عباس واردة بسند علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبعضهم قال أن هذا السند ضعيف، علي بن أبي طلحة لم يلحق ابن عباس، يوجد بينهما شيء يسمى انقطاعًا، لم يلحقه، فقالوا أن هذا السند ضعيف.

وبعضهم رد عليهم وقالوا أن بينهما أحد معروف مجاهد أو سعيد بن جبير، أيًا كان هم قالوا أن هذا السند حسن، وحسنه الحافظ بن حجر، وقال هذا السند حسن، فقالوا إذًا إما ابن عباس فتح لنا باب الاجتهاد، أن نتفكر ونتأمل علامَ تدل هذه الحروف؟، أو أن نختار الموقوف عليه من الآثار.

فبعضهم قال {المص} أنا الله أعلم، الميم غالبًا يروى عن ابن عباس –وورد أيضًا عن بعض السلف أقوال أخرى، وعن الحسن البصري وعن سعيد بن جبير ورد عنهم أقوالًا في التفسير، لكن الشاهد الأشهر عن ابن عباس–، قال:تعني أنا الله أعلم، **وغالبًا يختار الميم أعلم**، **وقالوا إن هذا يدل على علم الله المبثوث في السور**.

وصاد قال: أفصل، وإن كان حدث تحريف في بعض الكتب فكُتبت أفضل، ولكن –والله أعلم– رأيت أن أكثر الكتب اختارت أفصل لا أفضل، { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} [البقرة:٢٥٣] ولكن الغالب والله أعلم أن الوارد عن ابن عباس أنا الله أعلم وأفصل، سورة الأعراف فيها تفصيل في الرسالات عن بقية السور.

ما الاختيار الأخير الذي سنتحدث عنه؟

الاجتهاد، أنهم ظلوا يفكرون في دلالات الحروف المقطعة غير ما ورد عن السلف، هذا الباب بعض المتأخرين تحرك فيه وألف فيه كتبًا، فعلًا أتوا ببعض الكلام اللطيف.

ورد عن ابن القيم بعض الكلام في سورة صاد، ومنطلقهم في هذه الحروف أن الحرف جاء في كلمة، وهذه الكلمة تكررت في السورة، هذا كان منطلقهم أحيانًا في الاجتهاد.

- على سبيل المثال يقول **{ص}** من الاختصام والخصومة، وأن أكثر المواقف التي ذكرت في سورة صاد كانت فيها خصومات، الخصومة بين النبي وبين المشركين، الخصمان اللذان ذهبا إلى سيدنا داوود، {إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [ص:٦٤]، {بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [ص:٦٩] ، أن الخصومات جاءت في أربعة أو خمسة مواضع في سورة ص، فبعضهم سار على هذا النهج.
- ومثلًا نظر في **{كهيعص}** وظل يتتبع أين توجد هذه الحروف، فمثلًا الكاف من الكلمات التي جاءت في سورة مريم كن بأمر الله كن، والهاء (الهبة) أن الله –عز وجل– وهب يحيى ووهب

عيسى، وياء وعين يعمل الصالحات، فقالوا: أن "كن" هبة من الله لمن يعمل الصالحات هذه {كهيعص}.

- وبعضهم قال إن {ن} من المنع والنعمة وأكثر كلمات جاءت في سورة نون –القلم– المنع والنعمة، وقالوا أن معنى سورة نون أن جزاء الله منع النعمة عمن منعها، مثل أصحاب الجنة.

الشاهد إذًا ماذا نفعل معها؟

مثل ما الشيخ اللحياوي– من المعاصرين– المغربي قال: "هذه اللطائف تشم ولا تفرك"، بمعنى أنك **ممكن تستمتع بها طالما لا تخالف الشريعة**؛ لكن لن تقول أن هذا المقصد أساسًا، لا تستطيع أن تجزم، لا تستطيع تقول أن المقصد من {المص} كذا، أنت تذكره استئناسًا، من عجائب القرآن.

- بعضهم قال أن {الم} مثل ما قال بعض المعاصرين أن هذه من الممكن أن يكون بها إشارات إلى علامة الاستفهام ألم، وأنها جاءت ثلاث مرات في سورة البقرة، وبعضهم قال أن الألم مع الأمل، وأن اللواميم بها ألم وأمل، أريد أن أقول لك أن الذين تكلموا تكلموا كثيرًا جدًا في الحروف المقطعة ولا سيما من المعاصرين.

المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

نعود إلى {المص} بعضهم قال وحاول أن يأتي بلطائف، لكن نحن لن نخوض في هذا إلا عندما نقطع شوطًا مع بعض، بحيث نعود نقول بعضهم قال هذه لها علاقه بكذا وهذه لها علاقة بكذا.

سأكتفي بقول ما روي عن ابن عباس، وإن كان بعضهم ضعف السند، "أنا الله أعلم وأفصل"، وأن سورة الأعراف تمتاز بزيادة تفصيل في الرسالات وماذا حدث مع الرسل عن سورة الأنعام.

سورة الأنعام كانت الإجابة المجملة، لذلك يشبهون سورة الأعراف بسورة هود، وسورة الأنعام بسورة يونس، يونس أيضًا الكلام عن مجمل التوحيد، لا يوجد تفصيل في التعامل مع الرسل إلا قليلًا في آخر السورة، وسورة هود هي التي كانت بها تفصيل في الرسالات.

{المص} – لم أكن أنوي أن أبدأ هذه البداية، لكن لغرض... إذا قابلنا أي سورة بها حروف مقطعة نحيل على هذا الموضع، كان أحد الشيوخ أرسل لي لطيفة ذكرها الإمام السيوطي في كتاب الإكليل من أحكام التنزيل، كان يقول **هل هناك مثلًا دليل أو مرجع للعلماء أنه يقول شيئًا في موطن ثم يأتي في الموطن الثاني يُحيل عليه، ليس من الضروري أن يقوله، فجاء بآية من القرآن و هي {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [النساء: ١٤٠] أن هذا الحكم يُحيل على آية الأنعام**، آية النساء يُحيلها على الأنعام، فاستنبط هنا أن ممكن العلماء يُحيلوا على موطن أشاروا فيه وشرحوا فيه الشيء المراد توضيحه. فمن الممكن إذا قابلنا أي سورة بها حروف مقطعة نحيل على هذا الدرس في مقدمة سورة الأعراف.

بعضهم قال في الحروف المقطعة أن هذه أسماء سور.

وبعضهم قال أن من الحكم "التنبيه"، استثارة الانتباه.

{المص} بدأت السورة {كتابٌ}، {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ} بعضهم قال: أن هذه الآية المحورية في السورة، وبعضهم قال لا –مثلما قلنا– الآية المحورية التي قُبيل قصة سيدنا موسى بعد انتهاء قصص الرسل وقبل قصة موسى {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} وأن أغلب قصص الأعراف لمن نقضوا العهد، وهذا بالفعل موجود في سورة الأعراف أناس كثر نقضوا العهد.

تشريف النبي بإعطائه الكتاب

{كتاب} هناك رسالة أن الرب الذي تعرفت عليه في الأنعام واتخذته ربًا {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام:١٦٤] -في خواتيم سورة الأنعام-، هذا الرب لم يترككم سُدى بل أنزل إليكم كتاب، {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}، الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم-أن الله لم يتركك وأنزل إليك كتاب.

{ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ } بعضهم قال متى تأتي كلمة {إليك}، ومتى تأتي {عليك}؟، أحيانًا القرآن يقول: كتاب أنزل عليك، إنا أنزلنا إليك الكتاب أوعليك الكتاب.

- بعضهم قال: "عليك" حرف استعلاء، هذا العلو يكون فيه نوع من التكليف،
- و "إليك" نوع من التشريف، أي عندما أقول لك: هذه لك، أي أنا أعطيك هدية.

فيقولون عندما يقول القرآن "إليك" فيها نوع من التشريف، لكن "على" فكما أقول: عليك كذا واجب عليك كذا، فغالبًا مواطن إنزال الكتاب ب "عليك" فيها نوع من التكليف، إنما "إليك" فيها نوع من التشريف.

لكن كيف هنا تشريف وهو يقول له { فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ }، فكأن هناك إشارة: ينبغي أن تفرح فكيف تقع في الحرج؟! أنا أعطيتك شيئًا المفترض أن يكون هو سبب فرح، كيف يجعلك هذا الشيء في حرج؟

{ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ } فلا ينبغي أبداً أن تكون في حرج، ينبغي أن تتشرف به، وأن تفرح به، وأن تستعلي به، { كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ } الفاء للتعقيب، بما أن هذا الكتاب أنزل إليك {فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}.

كيف ينشرح الصدر لتنذر بقوة

بدايةً ما معنى حرج؟ لكي نفهم ما معنى { فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ }.

الحرج قالوا في اللغة: الحرج هو الأشجار عندما تتشابك والأغصان تكون متشابكة، وتأتي الراعية والدواب ترعى فتمشي في مكان لترعى فيه، وتدخل مكانًا الأشجار تكون فيه متشابكة ، لم تعد تعرف كيف تمشي فتقف ويحدث تشابك بين مثلًا قرونها وهذه الأغصان، لم تعد تعرف كيف ترجع أو تمشي، يقول وقعت في الحرج، يسمون هذا المكان الحرج، موطن تشابك الأشجار الذي يجعل الراعية لا تستطيع أن تستمر في السير يسمونه حرجًا.

فشبهوا التشابك الذي يحصل بين الأشجار بحالة الاشتباك النفسي والضيق النفسي، وضيق الصدر هذا يسمونه حرجًا، العرب تستعير المعنى الحسي للمعنى المعنوي.

{ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ }التفسير المطابق: "ضيق"، وكان وارد عن بعض السلف "شك"، فلا يكن في صدرك حرج "ألا يبقى صدرك ضيقًا".

إذًا {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ}، لن تستطيع أن تنذر إذا كان في صدرك حرج أبدًا، لن تصل إلى القوة في الإنذار وأن تخوف الناس، وأن تذكر الناس، وأن تنصح الناس، إلا إذا انتفى هذا الحرج، دائمًا الحرج يجعل الصدر يضيق، ويجعل اللسان يتوقف، {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِ} [الشعراء:١٣] ، الحرج يجعلك غير قادر أن تتكلم، خجلان، خائف.

أنت لا بد أن تكون مؤمنًا بالشيء بقوة لكي تستطيع أن تبلغه، ولا سيما إن كان هذا الكلام يخالف تقاليد وعقائد الناس، كيف ستواجههم وأنت في صدرك حرج؟

لذلك مثلًا من يذهب إلى مكان عمل، أو في جامعة، أو في وظيفة، أو في أسرة، أو في أي مكان وفي صدره حرج من تعاليم الدين، لم يقتنع به بعد، لم ينفذه بقوة، ليس منشرح الصدر تجاهه، تجده خجلانًا، لا يقدر على أن ينصح الناس.

إنما تجد منشرح الصدر جالسًا يراه الناس جميعًا غريبًا! وكذلك هو يرى الناس كلهم غريبين جدًا، لم أنتم هكذا؟ ألا تشعرون أن ثمة شيء خاطئ؟ بل أنت الذي لا يشعر أن هناك شيئًا خاطئًا؟! كلا، لا يوجد لدي خطأ، هو واثق وليس في صدره أي حرج أصلًا، هو تجاوز هذه المرحلة.

لذلك لن تستطيع أن تصل إلى الإنذار إلا إذا تخطيت هذا الحرج، لا بد أن تتخطى هذا؛ لذلك ربنا يقول له: أنت لا يفترض أن تقف عند هذا فقط، بل أن **تتخطى الحرج حتى تصل إلى الإنذار، أي أنك ليس فقط تتجاوز مرحلة الحرج من الأحكام التشريعية التي ستأتيك –لأننا قلنا سورة الأعراف فيها رسالات، أنت ستأتيك رسالات–كتاب– فلا بد أن تتجاوز مرحلة الحرج إلى مرحلة الإنذار**.

إذًا كيف أتجاوز هذا الحرج؟ **أن تعلم أنه من عند الله** {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} –الذي أشار إلى هذا الأمر الزمخشري واتبعه ابن عاشور–، أي **إذا علمت أنه من عند الله تجاوزت هذا الحرج**، الناس تراك غريبًا وأنت تقول أنا أتبع أمر الله، انظروا أنتم تتبعون من؟ {إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي}[الأنعام:٥٧] {عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} سورة هود.

أنتم لديكم مشكلة، من أين أتيتم بهذا الكلام؟ {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} فتذكرك لهذه الحقيقة ينفي عن صدرك الحرج، تذكُر أن ما عندك، أو ما تطبقه، أو ما في يدك هو من عند الله ينفي عن صدرك الحرج، يجعلك منطلقًا، جئتكم من عند الله، أي أن هذا الكلام ليس من عندي، إنما من عند الله –سبحانه وتعالى– فتتجاوز مرحلة الحرج.

أهل الباطل يريدون أن يضعوا الداعية في حرج

أيضاً وكأن هناك إشارة أن حالة الحرج النفسي تلك، الاشتباك الذي يحدث يجعلك غير قادر أن تتقدم، فقلنا إن هذا الحرج اشتباك بين الشجر يجعلك لا تعرف كيف تخرج منه، أهل الباطل يريدون أن يُوصِلُوك لهذه المرحلة، مرحلة ألا تتقدم فيضعونك في حرج فلا تستطيع تتقدم بالدين للأمام، أنت نفسك لا تعرف كيف تطبق الدين، يجعلونك دائمًا تقع في نوع من أنواع الحرج.

قلنا أن تفسير الحرج الحسي أن الراعية لا تستطيع أن تتقدم بسبب اشتباك الشجر، التفسير المعنوي أن الداعية لا يعرف كيف ينطلق لا يستطيع أن ينذر، لا يقدر أن يبلغ الناس، لأن داخله حرج، ذاك الحرج من الذي أحدثه؟

الناس، أهل الباطل يضعونك في ظروف تجعل في صدرك حرج، أنت بعيد عن الناس، تتلقى الوحي تفرح، تأتي لتنزل إلى المجتمع {لتنذر به} فور أن تنزل بالإنذار قد تجد هذا الحرج، فأهل الباطل يضغطون عليك لتقع في هذا الحرج، لابد أن تكسر هذه الأغصان، وأن تكسر هذه الشبكة، وتقتحم، وألا تقع في الحرج، أنت من المفترض أن تتجاوز هذا.

هم يريدون وضعك في الحرج، يظلون يسألونك أسئلة كثيرة ماذا ستفعلون في السياحة؟ ماذا ستفعلون في كذا؟ وكذا؟ فتتساءل هل ديننا لا يناسب العصر أم ماذا؟!

فتقع في حرج أنك خائف أن تقول أحكام تشريعية، كحد الردة مثلًا، خائف، ليس مناسبًا، الخلافة مثل كلام وائل غنيم مثلًا، أنه يضعك في حرج، ما هذا؟ هل حقًا ليس لدينا تصور؟ فتقول يكفي كلامًا في هذا الموضوع، دعنا نتجاوز هذا الموضوع، هنا هو يضعك في حرج، لا، أنت لا بد أن تتجاوز هذا.

لذلك بعض أهل العلم –أو كثير من أهل العلم– أشاروا إلى معنى لغوي لطيف {فلا يكن في صدرك حرج} –ملحوظة لغوية سريعة– كان= ترفع الاسم وتنصب الخبر، **أين اسم كان هنا؟ {حرج} إذًا فالنهي موجه لم؟ النهي موجه للحرج.**

كيف يكون النهي موجه للحرج وليس للنبي –صلى الله عليه وسلم–؟ قالوا إنه معنى لغوي مثلما تقول لأحد ما: لا أراك ها هنا! تعلم معنى أن تقول أنا لا أريد رؤيتك هنا؟ معناه: أن تذهب، فكأن هنا قالوا إن هناك إشارة خاصة لما قال وهو الحرج، ذاك الضيق النفسي هل أنت من تأتي به أم هو يأتي رغمًا عنك؟

النبي –صلى الله عليه وسلم– عندما نصح الصحابي قال له: (لا تغضب)[1] هل الصحابي هو من يختار الغضب؟ أم أن الغضب يأتي رغمًا عنه؟ إذًا فما معنى لا تغضب؟ أي **لا تضع نفسك في مواطن**

١ [عن أبي هريرة:] أَنَّ رَجُلًا قالَ للنبيِّ ﷺ : أوْصِنِي، قالَ: لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرارًا، قالَ: لا تَغْضَبْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦١١٦ • [صحيح] •

الغضب، وعندما تقع في مواطن الغضب تصرف بسرعة واخرج من مواطن الغضب، استعذ بالله من الشيطان الرجيم، لو واقف تجلس، تتوضأ.

إذًا **حينما يأتي الأمر لهذه الأمور النفسية، فالغرض منه ألا تسقط فيها، وإذا وقعت سارع بالخروج منها.**

إذًا ف {لا يكن في صدرك حرج} تعني إياك أن تجعلهم يصلون بك إلى هذه المرحلة، حاذر من أن توضع تحت ضغط، حاذر أن يأتوا بك في برنامج ويضعونك في ركن ويبرحونك ضربًا بالأسئلة، ماذا ستفعل في كذا؟ لا تضع نفسك في هذا الموقف، ولو وضعت فيه فاخرج منه، وعلى الفور تذكر جمال هذه الشريعة، وأنها من عند الله وأن الله قادر، أخرج نفسك منه بتذكر أنه من عند الله، لا تسمح للحرج أن يستقر في صدرك، إياك أن تسمح بذلك.

{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}، لذلك قالوا "مِن" تلك قد تكون ابتدائية، أي لا تجعل نزول القرآن سببًا وبداية لهذا الحرج، لا يكن في صدرك حرج من القرآن أبدًا، إياك أن تتحرج من الآيات أو من الرسالة، وإذا حدث فاخرج من هذا الموطن سريعًا.

أي أنه من الممكن للإنسان أن يسقط، ليس النبي -صلى الله عليه وسلم- بل هذا الأمر بالنسبة لنا نحن، نسقط في حرج، لذلك قالوا: **النهي عن شيء لا يستلزم الوقوع فيه**، أي ليس معنى أن الله نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك أنه وقع فيه، كلا، بل هو تحذير لما قد تفعله الظروف فيمن يسير في هذه الطريق أو فيما تفعله الأحداث لأتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فحينما يأتي النهي للنبي -صلى الله عليه وسلم- يكون أتباعه على حذر، فأنت حينما تقرأ الآية تقول: إذا كان الله نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا فكيف بنا؟ فتكون أكثر احترازًا من الوقوع في هذا الحرج.

القيود الداخلية أكثر إعاقة من القيود الخارجية

{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ} وفي هذا إشارة أن القيود الداخلية أكثر إعاقة من القيود الخارجية، قيد الهم، والحرج، والغم، قد يجعل الإنسان يتوقف عن السير؛ لذلك أول طلب طلبه سيدنا

موسى عندما قال له ربنا { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ }[طه:٢٤] في سوره طه، قبل أن يطلب تيسير الأمور الخارجية طلب شرح الصدر الداخلي { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } أولًا داخلي، { وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } ثم الأمور الخارجية، لو الأمر الخارجي ميسر والصدر ضيق لا يستطيع الإنسان أن يسير، لكن لو العكس حصل أن الصدر منشرح والأمور منغلقة فالإنسان يحاول و يأخذ الأجر حتى لو لم يَتم الفعل، فانشراح الصدر أمر مهم جدًا.

النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل)[٢] -كلها أمور داخلية- ثم في النهاية (وغلبة الدين وقهر الرجال)[٣] -هذه أمور خارجية- كل الأمور الداخلية أولًا الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل، وبعدها غلبة الدين وقهر الرجال.

وارد أن الناس ستقع في الحرج

{ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ } قلنا لا بد من تجاوز مرحلة الحرج ليس فقط أن ترضى أو تكون منشرح الصدر، بل يفترض أن تنتقل إلى مرحلة الإنذار، وكما قلنا لن تستطيع أن تصل إلى مرحلة الإنذار ومواجهة الناس إلا بنفي هذا الحرج.

أيضًا هناك إشارة أن **الظروف غالبًا ستجعل الناس يقعون في حرج، لأن المطلوب منك أمر صعب، مواجهة المجتمع ومواجهة العقائد، وتبليغ الرسالات، ومواجهة الطغاة أمر فعلًا قد يؤدي إلى الوقوع في الحرج، فلا بد أن تكون على حذر من ذلك.**

---

٢ [عن أنس بن مالك:] أنَّ النبيَّ ﷺ، قالَ لأبي طَلْحَةَ: التَمِسْ غُلامًا مِن غِلْمانِكُمْ يَخْدُمُنِي حتّى أخْرُجَ إلى خَيْبَرَ فَخَرَجَ بي أبو طَلْحَةَ مُرْدِفِي، وأنا غُلامٌ راهَقْتُ الحُلُمَ، فَكُنْتُ أخْدُمُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، إذا نَزَلَ، فَكُنْتُ أسْمَعُهُ كَثِيرًا يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجالِ. ثُمَّ قَدِمْنا خَيْبَرَ فَلَمّا فَتَحَ اللَّهُ عليه الحِصْنَ، ذُكِرَ له جَمالُ صَفِيَّةَ بنْتِ حُيَيِّ بنِ أخْطَبَ، وقدْ قُتِلَ زَوْجُها، وكانَتْ عَرُوسًا، فاصْطَفاها رَسولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، فَخَرَجَ بها حتّى بَلَغْنا سَدَّ الصَّهْباءِ، حَلَّتْ فَبَنى بها، ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا في نِطَعٍ صَغِيرٍ، ثُمَّ قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: آذِنْ مَن حَوْلَكَ. فَكانَتْ تِلكَ وليمَةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ على صَفِيَّةَ، ثُمَّ خَرَجْنا إلى المَدِينَةِ قالَ: فَرَأَيْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يُحَوِّي لَها وراءَهُ بعَباءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ، فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَها على رُكْبَتِهِ حتّى تَرْكَبَ، فَسِرْنا حتّى إذا أشْرَفْنا على المَدِينَةِ نَظَرَ إلى أُحُدٍ فَقالَ: هذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ ثُمَّ نَظَرَ إلى المَدِينَةِ فَقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أُحَرِّمُ ما بيْنَ لابَتَيْها بمِثْلِ ما حَرَّمَ إبْراهِيمُ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ بارِكْ لهمْ في مُدِّهِمْ وصاعِهِمْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٨٩٣ • [صحيح] •

٣ [عن أبي سعيد الخدري:] ألا أعلمُكَ كلامًا إذا قلتَه أذهَبَ اللهُ تعالى همَّكَ وقضى عنكَ دَينَكَ؟ قُلْ إذا أصبحتَ وإذا أمسَيتَ: اللهم إني أعوذُ بكَ منَ الهمِّ والحَزَنِ، وأعوذُ بكَ منَ العجزِ والكسلِ، وأعوذُ بكَ منَ الجُبنِ والبخلِ؛ وأعوذُ بكَ مِن غلبةِ الدَّينِ وقهرِ الرجالِ
السيوطي (ت ٩١١)، الجامع الصغير ٢٨٦٤ • صحيح

فعندما يقول لنا ربنا: احترزوا من الشيطان، لا يغوينكم الشيطان، إذًا فمن الوارد بنسبة كبيرة أن يضلك الشيطان، فحينما يقول لنا ربنا: خذوا حذركم، لا تقعوا في هذا الحرج، فهذا وارد أن صعوبة الطريق قد تجعل الإنسان يقع في هذا.

تحرك وأنذر بالقرآن

{لتنذر به} تحرك بالقرآن، **لابد أن يكون الإنذار بالقرآن** -بعدما لم يعد في صدرك حرج-، فليس عليك أن تجعل الإنذار من غير القرآن لكي تتخلص من هذا الحرج، فمثلًا لكي لا نواجه الناس بقضية النار والدار الآخرة فننذرهم بأمور أخرى، مثلًا لا تفعل هذا من أجل صحتك، أو أن مظهرك لن يصبح حسنًا، أو لئلا تفسد حميتك الغذائية ونحو ذلك، لا... أنت تنذر به، ما أنذر به القرآن تنذر به، مصدرك هو القرآن {لا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به} لتنذر به المعرضين، ويكون القرآن ذكرى للمؤمنين.

أهل الباطل يحتاجون نذارة القرآن، وأهل الإيمان يحتاجون تذكير القرآن، تذكير {ذكرى للمؤمنين} إن الإنسان بطبيعته ينسى { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ }[طه:١١٥] فالقرآن بالنسبة له هو الذكرى دائمًا، هو محتاج دومًا أن يتذكر.

في آخر سورة الأعراف { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا} لماذا؟ لأنهم من المتقين، قال الله هنا أن القرآن ذكرى للمؤمنين، وآخر الأعراف آخر السورة { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا} لأنهم في علاقة مع القرآن، لأنهم يستمعون القرآن، لأن بعدها { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} فبما أنه يستمع للقرآن إذا مسه طائف من الشيطان تذكر، {وذكرى للمؤمنين}.

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

التعامل الأمثل مع آيات الله هو اتباعها

اتبعوا، هذه النقلة مباشرة، هل الآية الأولى أمر للنبي –صلى الله عليه وسلم– ثم الآية الثانية أمر للأمة؟ بمعنى {فلا يكن في صدرك حرج} وبعدها {اتبعوا}؟ أم أن هناك محذوف كما اختار الإمام الطبري؟

أي فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به فقل لهم اتبعوا، أي إن {اتبعوا} تلك هل النبي –صلى الله عليه وسلم– هو من استجاب مباشرة فعلًا ونفى الحرج عن صدره وقام للإنذار، فقام للناس وقال اتبعوا ما أنزل إليكم؟ فهنا كلمة اتبعوا التي قالها النبي –صلى الله عليه وسلم– للقوم؟ فقل اتبعوا، هناك "قل" محذوفة، أو أن الله –عز وجل– أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– {فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به} ثم أمرنا بالاتباع؟.

- أيًا كان **لو كانت هناك قل محذوفة ففيها دلالة أن النبي –صلى الله عليه وسلم– طبق مباشرة**، {لتنذر به} فأنذر مباشرة،
- **لو الخطاب للأمة المقصود أن هذا القرآن جاء لتطبيقه، لا للتبرك به فقط، اتبعوا لا استمعوا**، ليس فقط الاستماع بل قضية {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم}

وهذه هي الإشكالية أصلًا في التعامل الخاطئ مع رسالات الله، وأن التعامل الأمثل ببساطة {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم} ، لأنه ربكم الذي تعرفتم عليه في الأنعام، لأنه ربكم فلم يترككم سُدى، فأنزل إليكم كتاب فاتبعوه، وهذا في آخر الأنعام {وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام:١٥٥] إذًا الأمر أن هذا القرآن كتاب أنزل لتتبعوه.

التوحيد شقان: نفي واثبات

{اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، هل {اتبعوا} هي نفسها {ولا تتبعوا من دونه أولياء}؟ هل هي أم لا؟ بمعنى إن قلت لك اسمع كلام فلان، هل لا بد أن أقول لك اسمع كلام فلان ولا تسمع كلام فلان؟ هل هما نفس الشيء؟

كلا، لأنه من الممكن أن أقول لك اسمع كلام محمد، لكن هذا لا ينفي أن تسمع كلام أحمد أيضًا، فتسمع كلام محمد وأحمد وإبراهيم؛ لذلك عندنا التوحيد شقان، التوحيد عندنا ليس الله إله، كلا، بل التوحيد عندنا "لا إله إلا الله" ، هذا هو التوحيد.

من الممكن أن تقول الله إله، حسنًا الله إله لكن هناك آلهة أخرى! وهذا ما كان يقوله المشركون، {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ} [البقرة:٢٥٦] فالمطلوب منا أن نتبع القرآن وحسب، اتبعوا... ولا تتبعوا... ، لا إله إلا الله، {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ}، هذا هو كمال التوحيد، ليس اتبعوا ما أنزل إليكم فحسب... سنفعل لكن قد نتبع أشياءً أخرى، لا... التوحيد هو مصدر التلقي.

الذي خلق هو الذي يأمر

{اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم} وكيف لا تتبعون ما أنزله ربكم؟ الرب الذي أنعم وأعطى؛ لذلك الأعراف بعد الأنعام، وهذا يعلمك فن الدعوة، أنك حينما تسمع عن قدرة ربنا ونعمه في الأنعام فمن الطبيعي أن تطبق الأمر.

لذلك في الأعراف ربنا يقول {ألا له الخلق} ما تم شرحه في الأنعام، {والأمر} المشروح في الأعراف، {ألا له الخلق والأمر} الخلق قلنا أنه قد أتى في الأنعام {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض}، وسورة الأعراف بدأت بـ{اتبعوا}، {كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا} ، فقال الله {ألا له الخلق}و كانت واضحة في الأنعام، {والأمر} كما هي موجودة في الأعراف.

الذي خلق هو الذي يأمر، فاتبعوا ما أنزل إليكم، لذلك ربنا قال {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم}، ماذا فعل لكم الآخرون كي تطيعوهم؟ {ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون}، ما معنى ولا تتبعوا من دونه أولياء؟ لماذا تبحثون عن ولي غيري؟ لماذا تبحثون عن أحد يتولاكم؟!

وهنا إشارة أن **الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بدون منهج، الناس لابد أن تتبع شيئًا**، حتى الملاحدة عندما يقولون ليس لدينا دين ولا قواعد، يعودون ويضعون قواعد بأنفسهم؛ لذلك من لا يعبد أحدًا سيعبد نفسه، من لا يعبد أحدًا هو عبد (تعس عبد الدينار والدرهم)[٤]، هو لا بد سيتبع شيئًا ما.

فالناس مفطورون على اتباع منهج معين، سواءً سيتبعون منهجًا أرضيًا أو سماويًا، وسماوي :إما محرف أو حق مثل القرآن، فلا بد من أن هناك اتباع، فيقول لهم طالما ستتبعون شيئًا فاتبعوا القرآن، {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم} الذي يريد لكم الخير.

{اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء} ابن عاشور قال تحتمل معنيين، أي لاتطيعوا الآلهة {لا تتبعوا من دونه أولياء} أو سدنة الآلهة، من يدعون خدمة الآلهة فيعطونكم أوامر، أو لا تتبعوا أي **لا تطلبوا، لا تبحثوا عن ولي غيري، أي لا تطيعوا الآلهة أو السدنة التابعة لهم**.

إذًا "تتبعوا" هنا معناها: تطيعوا، أو "لا تتبعوا" أي: لا تطلبوا، مِن تتبع زلة فلان أي ظل يطلبها ويبحث عنها، {لا تتبعوا من دونه أولياء} لماذا تصرون على البحث عن مناهج أرضية؟ نجرب الاشتراكية، فشلت، إذًا نجرب الليبرالية! ، القرآن موجود... فلم تبحثون عن غيره؟!

{ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} ربنا يقول لك إن سنة الله على مدار التاريخ أن القليل هو الذي يتذكر {وما وجدنا لأكثرهم من عهد} كما في نفس السورة.

{قليلا ما تذكرون} بعض أهل العلم قالوا -عذرًا كما قلنا سنرفع المستوى تِباعًا- أن "ما" هذه يسمونها "ما الموصولة"، ماذا تعني ما الموصولة؟ تأتي بمعنى اسم موصول "الذي"، وغالب أهل العلم قالوا أن "ما مصدرية" .جزء قالوا أنها موصولة والأغلب قالوا أنها مصدرية.

- فإن كانت موصولة تكون بمعنى الذي.
- أما من قال أنها مصدرية، فما معنى ما المصدرية؟ -وهذا الراجح في الآية هنا- أنها مع الفعل الذي بعدها تعطي مصدرًا {قليلا ما تذكرون} معناها: قليلًا تذكركم، { وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ } [آل عمران:١١٨] معناها ودوا عنتكم -سورة آل عمران-، ودوا أي هم يتمنون، { وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ }

هنا ليست ما النافية، لو كانت ما نافية فأنت قد أفسدت الجملة، يسمونها "ما المصدرية"، أي ودوا عنتكم، يحبون لكم العنت، {قليلا ما تذكرون} معناها: قليلًا تذكركم.

٤ [عن أبي هريرة:] تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، والدِّرْهَمِ، والقَطِيفَةِ، والخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٣٥ • [صحيح] • شرح رواية أخرى

ماذا قال لنا الله قبلها مباشرة؟ {وذكرى للمؤمنين}، أي قليل من أهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالقرآن للأسف، { قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة:٤٢] والدليل على هذا { وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا }[الأعراف:٤] والدليل على ذلك أن "كم" هنا للتكثير، كم الخبرية التي تأتي للكثرة، { وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ }.

آخر شيء أن أهل العلم قالوا أهلكناها فجاءها بأسنا، كيف؟ أليس لو أننا أهلكناها فقد ماتت وانتهت، كيف أهلكناها فجأها بأسنا؟ كيف عقب ربنا بعد كلمة "أهلكناها" {فجائها بأسنا بياتًا أو هم قائلون}، هذه نتركها للمرة القادمة بإذن الله –عز وجل–، هذا ما سنعرفه بإذن الله المرة القادمة.

أسأل الله –عز وجل– أن يستعملنا وإياكم في فهم كتابه والعمل به، وأن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله خيرًا.